

الباب الثاني والأربعون

ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة

الصوفى بحسن نيته، وصحة مقصده، ووفور علمه، وإتيانه بآدابه تصير عاداته عبادة، والصوفى موهوب، وقته لله، وحياته لله، كما قال الله تعالى لنبيه آمراً له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) فتدخل على الصوفى أمور العادة لموضع حاجته وضرورة بشريته، ويحف بعاداته نور يقظته، وحسن نيته، فتتنور العادات، وتتشكل بالعبادات؛ ولهذا ورد: «نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح» هذا مع كون النوم عين الغفلة، ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة؛ فتناول الطعام أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة، لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية، وتعلق أثره بالقلب والقالب، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك، والقالب مركب القلب، وبهما عمارة الدنيا والآخرة. وقد ورد: «أرض الجنة قيعان نباتها التسبيح والتقديس» والقالب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا، والروح والقالب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة، وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين.

والله تعالى ركب آدمى بلطف حكيمته من أخص جواهر الجسمانيات والروحانيات وجعله مستودع خلاصة الأرضين والسموات، جعل عالم الشهادة، وما فيها من النبات والحيوان لقوام بدن آدمى. قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(٢) فتكون الطباع، وهى: الحرارة، والرطوبة، والبرودة، واليبوسة، وكون بواسطتها النبات، وجعل النبات قواماً للحيوانات، وجعل الحيوانات مسخرة للآدمى يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه، فالطعام يصل إلى المعدة، وفى المعدة طباع أربع، وفى الطعام طباع أربع، فإذا أراد الله اعتدال مزاج البدن أخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام، فتؤخذ الحرارة للبرودة، والرطوبة لليبوسة، فيعتدل المزاج ويأمن الاعوجاج، وإذا أراد الله تعالى افناء قالب وتخريب بنية أخذت كل طبيعة جنسها من المأكول فتميل الطباع، ويضطرب المزاج، ويسقم البدن ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٣).

(١) آية رقم ١٦٢ من سورة الأنعام.

(٢) آية رقم ٢٩ من سورة البقرة.

(٣) من آية ٣٨ من سورة يس.

روى عن وهب بن منبه قال: وجدت في التوراة صفة آدم عليه السلام «إنى خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء. من: رطب، ويابس، وبارد، وسخن، وذلك لأنى خلقت من التراب وهو يابس، ورطوبته من الماء، وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح، وخلقت في الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق، هنّ ملاك الجسم بإذنى، وبهن قوامه. فلا يقوم الجسم إلا بهنّ، ولا تقوم منهن واحدة إلا بأخرى منهن: المرّة السوداء، والمرّة الصفراء، والدم، والبلغم. ثم أسكنت بعض هذا الخلق فى بعض، فجعلت مسكن اليبوسة فى المرّة السوداء، ومسكن الرطوبة فى المرّة الصفراء، ومسكن الحرارة فى الدم، ومسكن البرودة فى البلغم، فأیما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التى جعلتها ملاكه وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربعا لا يزيد ولا ينقص كملت صحته واعتدلت بنيته، فإن زادت منهن واحدة عليهن هزمتهن ومالت بهنّ ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها حتى يضعف عن طاقتهن ويعجز عن مقدارهن.

فأهم الأمور فى الطعام أن يكون حلالاً، وكل ما لا يذمه الشرع حلال، رخصة ورحمة من الله لعباده، ولولا رخصة الشرع كبر الأمر وأتعب طلب الحلال.

ومن أدب الصوفية: رؤية المنعم على النعمة، وأن يبتدئ بغسل اليد قبل الطعام، قال رسول الله ﷺ: «الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر».

وإنما كان موجبا لنفى الفقر؛ لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالأدب، وذلك من شكر النعمة، والشكر يستوجب المزيد فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة، مذهباً للفقر.

وقد روى أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «من أحب أن يكثر خير بيته فليتوضأ إذا حضر غداؤه، ثم يسمى الله تعالى»^(١).

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾^(٢) تفسيره: تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان. واختلف الشافعى وأبو حنيفة، رحمهما الله تعالى، فى وجوب ذلك.

وفهم الصوفى من ذلك، بعد القيام بظاهر التفسير: أن لا يأكل الطعام إلا مقرونا بالذكر، فقرئه فريضة وقته وأدبه. ويرى أن تناول الطعام والماء ينتج من إقامة النفس ومتابعة هواها، ويرى ذكر الله تعالى دوائه وترياقه.

(١) متفق عليه

(٢) آية رقم ١٢١ من سورة الأنعام.

روت عائشة رضی الله عنها قال: (كان رسول الله ﷺ يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه لو كان يسمى الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليقل بسم الله، فإن نسي أن يقول بسم الله، فليقل بسم الله أولاً وآخره».

ويستحب أن يقول في أول لقمة: «بسم الله» وفي الثانية: «بسم الله الرحمن» وفي الثالثة يتم.

ويشرب الماء بثلاثة أنفاس، يقول في أول نفس: «الحمد لله» إذا شرب، وفي الثانية: «الحمد لله رب العالمين» وفي الثالثة: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم».

وكما أن المعدة طباعاً تتقدر كما ذكرناه، بموافقة طباع الطعام فللقلب أيضاً مزاج وطباع لأرباب التفقد والرعاية اليقظة، ويعرف انحراف مزاج القلب من اللقمة المتناولة، تارة تحدث من اللقمة حرارة الطيش بالنهوض إلى الفضول، وتارة تحدث في القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت وتارة تحدث رطوبة السهو والغفلة، وتارة يبوسة الهم والحزن بسبب الحظوظ العاجلة، فهذه كلها عوارض يتفطن لها المتيقظ، ويرى تغيير القلب بهذه العوارض تغيير مزاج القلب عن الاعتدال.

والاعتدال كما هو مهم طلبه للقلب، فللقلب أهم وأولى، وتطرق الانحراف إلى القلب أسرع منه إلى القلب.

ومن الانحراف ما يسقم به فيموت لسوت القلب، واسم الله تعالى دواء نافع مجرب ينقى الأسواء، ويذهب الداء، ويجلب الشفاء.

حكى أن الشيخ أبا محمد محمداً الغزالي لما رجع إلى «طوس» وصف له في بعض القرى عبد صالح فقصدته زائراً فصادفه وهو في صحراء له يبذر الحنطة في الأرض، فلما رأى الشيخ محمداً جاء إليه واقبل عليه، فجاء رجل من أصحابه، وطلب منه البذر؛ لينوب عن الشيخ في ذلك وقت اشتغاله بالغزالي، فامتنع، ولم يعطه البذر، فسأله الغزالي عن سبب امتناعه، فقال: لأنى أبذر هذه البذر بقلب حاضر ولسان ذاك، أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئاً، فلا أحب أن أسلمه إلى هذا فيبذره بلسان غير ذاك وقلب غير حاضر!!

وكان بعض الفقهاء عند الأكل يشرع في تلاوة سورة من القرآن يحضر الوقت بذلك حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر، ولا يعقب الطعام مكروه، ويتغير مزاج القلب.

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي يقول: «أنا آكل وأنا أصلي»، يشير إلى حضور القلب في الطعام؛ وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله، لئلاً يتفرق همّه وقت الأكل، ويرى للذكر وحضور القلب في الأكل أثراً كبيراً لا يسعه الإهمال.

ومن الذكر عند الأكل: الفكر فيما هياً الله تعالى من الأسنان المعينة على الأكل، فمنها: الكاسرة، ومنها: القاطعة، ومنها: الطاحنة، وما جعل الله تعالى من الماء الحلو في الفم حتى لا يتغير الذوق كما جعل ماء العين مالحاً لِمَا كان شحماً حتى لا يفسد، وكيف جعل الندوة تنبع من أرجاء اللسان والفم؛ ليعين ذلك على المضغ والسوغ، وكيف جعل القوة الهاضمة مسلطة على الطعام تفصله وتجزئه متعلقاً مددها بالكبد، والكبد بمثابة النار، والمعدة بمثابة القدر، وعلى قدر فساد الكبد تعتل الهاضمة، ويفسد الطعام، ولا ينفصل، ولا يصل إلى كل عضو نصيبه، وهكذا تأثير الأعضاء كلها من الكبد، والطحال، والكليتين، ويطول شرح ذلك.

فمن أراد الاعتبار فليطالع تشريح الأعضاء، ليرى العجب من قدرة الله تعالى، من: تعاضد الأعضاء وتعاونها، وتعلق بعضها ببعض في إصلاح الغذاء، واستجذاب القوة منه للأعضاء، وانقسامه إلى: الدم، والثقل، واللبن لتغذية المولود من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، فتبارك الله أحسن الخالقين. فالفكر في ذلك وقت الطعام وتعرف لطيف الحكيم والقدر فيه من الذكر.

ومما يذهب داء الطعام المغير لمزاج القلب أن يدعو في أول الطعام ويسأل الله تعالى أن يجعله عوناً على الطاعة ويكون من دعائه: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وما زرقتنا مما تحب اجعله عوناً لنا على ما تحب، وما زويت عنا مما تحب اجعله فراغاً لنا فيما تحب».